مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Etudes sur les Ressources, Mobilité et Attractivité - LERMA

جامعة القاضي عياض
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

التاريخ والديناميات الاجتماعية

متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي

تنسيق :
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

الجزء الثاني

2024

التاريخ والديناميات الاجتماعية
متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي
تنسيق :
محمد رابطة الدين و محمد الأكلع
الجزء الثاني
2024

مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Etudes sur les Ressources, Mobilité et Attractivité - LERMA

جامعة القاضي عياض
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

Histoire et dynamiques sociales

Mélanges en l'honneur du professeur Hassan HAFIDI ALAOUI

Coordination :
Mohamed RABITATEDDINE et Mohamed ELAKLAA

Tome 2

2024

مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية
Laboratoire des Etudes sur les Ressources,
Mobilité et Attractivité - **LERMA**

MARRAKECH
جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD
كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش
Faculté des Lettres et Sciences Humaines - Marrakech

التاريخ والديناميات الاجتماعية

متنوعات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علوي

تنسيق :
محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

الجزء الثاني

2024

محفوظة جميع الحقوق
©Copyright

الـتـاريـخ والـديناميات الاجتماعيـة

متنوعـات مهداة إلى الأستاذ حسن حافظي علـوي

تنسيـــــــــق: محمد رابطة الدين ومحمد الأكلع

مـنـشـــــورات: مختبر الأبحاث حول الموارد، الحركية والجاذبية (LERMA)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة القاضي عياض، مراكش.

الإيداع القانوني : 2024MO0741

ردمـــــــــــك : 978-9920-8894-0-7

الطبـعـة الأولى: 2024

الطباعة والإخراج الفني: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط

دار أبي رقراق للطباعة والنشر
10 شارع العلويين رقم *3*، حسان – الرباط
الهاتف : *83 75 20 37 05* - الفاكس : *89 75 20 37 05*
E-mail : editionsbouregreg2015@gmail.com

جوانب من تاريخ النساء بالأندلس

محمد المغراوي[*]

مقدمة

يكتسي التأريخ للمرأة الأندلسية أهمية بالغة في سياق انتعاش البحث التاريخي حول القضايا الاجتماعية بالغرب الإسلامي الوسيط. وقد تم تسليط الضوء بما يكفي على الإبداعات الشعرية لشاعرات الأندلس بالخصوص، كما تم الاهتمام أيضا بنماذج من النساء الشهيرات، بسبب توفر إشارات تاريخية أوفر نسبيا حولهن. وتتتابع الدراسات حول حضور المرأة في مجالات أخرى ظلت مهملة لمدة طويلة. ولا شك أن توزع المادة في المصادر التاريخية المختلفة على شكل شذرات وإشارات عابرة يعتبر سببا في هذه الوضعية، شأن باقي القضايا المتعلقة بالتاريخ الاجتماعي.

لقد كان حضور المرأة معبرا في تاريخ الأندلس، تدل على ذلك نصوص تاريخية وشواهد أنثربونيمية تتمثل في نسبة عدد من العلماء إلى أمهاتهن؛[(1)] إضافة إلى الشواهد الطوبونيمية المتعلقة بنسبة بعض المواقع بالأندلس إلى نساء مثل حصن أم جعفر، ببلد الجوف،[(2)] وجزيرة أم حكيم أي الجزيرة الخضراء.[(3)]

يتأكد من مختلف المصادر أن المرأة الأندلسية كانت نشيطة على مستويات متعددة، وكان حضورها بارزا في عدد من الميادين وتألقها واضحا في بعضها، فهناك نساء نبغن في الأدب والشعر والعلوم الشرعية واللغوية والأدب والطب، والتعليم والتأديب والقراءات القرآنية والوعظ وإتقان الخط. إضافة إلى وجود ميولات زهدية وتعاط للعمل الإحساني عند العديد

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط.

(1) مثل ابن الرومية وابن القوطية وابن مسرة وابن القابلة وابن صارة وابن العذراء وابن السمينة وابن القصيرة وابن معيشة وغيرهم.

(2) ابن حيان، **المقتبس في تاريخ الأندلس**، تحقيق إسماعيل العربي (الدار البيضاء: دار الآفاق الجديدة، 1990)، 42.

(3) نسبة إلى أم حكيم، جارية طارق بن زياد فاتح الأندلس. ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق علي محمد عمر (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1995)، 232-233؛ ابن عبد المنعم الحميري، **صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار**، تحقيق ليفي بروفنصال (بيروت: دار الجيل، ط. 2، 1988)، 73.

منهن من مختلف الفئات الاجتماعية. وإلى جانب هذه المواهب الأدبية والعلمية كانت المرأة الأندلسية نشيطة أيضا في مجال الشغل، كخادمة وقابلة وأمينة وماشطة وتاجرة؛ بجانب الأعمال المنزلية في المدن والفلاحية في البوادي. هذا فضلا عن الجواري اللواتي كانت منهن القيان المغنيات وذوات المواهب النادرة والثقافة الواسعة، والكاتبات في الدواوين الأميرية.

لذلك سنحاول توجيه الاهتمام في هذا البحث إلى تنوع مصادر تاريخ النساء وطبيعة حضورهن في المجتمع وتفاعلهن مع تطوراته.

• المرأة في الإسطوغرافيا

o تآليف في نساء الأندلس

قام بعض المؤلفين بتتبع أخبار نوابغ وشهيرات نساء الأندلس وألفوا فيها كتبا لم تصلنا للأسف، ولكن وصلت أسماؤها ونقول عنها في بعض المصادر. من هذه المؤلفات كتاب في قيان الأندلس ألفته أم الفتح فتحونة بنت جعفر بن جعفر المرسي، من أهل مرسية، عارضت به كتاب القيان لأبي الفرج الأصبهاني.[1] وألف مسلمة ابن قاسم كتاب النساء، نقل عنه ابن بشكوال في ترجمة غالبة بنت محمد الشهيرة بالمعلمة.[2] أما أبو داود سليمان بن نجاح، تلميذ أبي عمرو الداني، وشيخ مقرئي الأندلس في عصره، فقد ألف مجموعا في النساء لا ندري هل خصصه للنساء القارئات أم ذكر فيه غيرهن من النساء العالمات.[3] ومن خلال عنوان الكتاب الذي ألفه ابن الكتاني وسماه محمد وسعدى[4] يتبين أن الأمر يتعلق بقصة غرامية، لكن ضياعها حرمنا من معرفة مضمونه.

ومن الكتب التي وصلتنا كتاب **طوق الحمامة في الألفة والألاف** لأبي محمد بن حزم (ت 456هـ/1064م) ضمنه مجموعة من الأخبار عن نساء كان لهن أثر في حياته بقرطبة، أو كانت له بهن علاقة ما. وهناك كتب أخرى تحدثت عن النساء إلا أنها استبعدت الحديث

(1) ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق عبد السلام الهراس، ج. 4 (الدار البيضاء: دار المعرفة، د.ت)، 254؛ ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة**، (السفر الثامن) تحقيق محمد بنشريفة (الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984)، 491؛ عبد الهادي التازي، **المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي** (الدار البيضاء: نشر الفنك، 1992)، 120.

(2) خلف بن عبد الملك بن بشكوال، **الصلة**، ج. 3، تحقيق إبراهيم الأبياري (القاهرة: دار الكتاب المصري، ط.1، 1410هـ/1989م)، 911.

(3) ابن الأبار، **التكملة**، ج. 4، 250-251؛ وترجمته في ابن بشكوال، **الصلة**، ج. 1، 321.

(4) أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب (توفي حوالي 420هـ/1029م)، **كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس**، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، 1966)، مقدمة التحقيق، 10.

عن نساء الأندلس، مثل كتاب **أدب النساء** لعبد الملك بن حبيب (ت 238هـ/852م)، الذي ركز فيه على الأحاديث النبوية وأقوال الأئمة المتعلقة بالنساء بطريقة مجردة، ولم يتعرض لذكر شيء عن نساء الأندلس.[1] أما كتاب **الحدائق الغناء في أخبار النساء** لأبي الحسن علي بن محمد المعافري المالقي (ت 605هـ/1208م)،[2] فقد اقتصر فيه مؤلفه على ذكر تراجم نيف وثلاثين من شهيرات النساء في المشرق من صدر الإسلام إلى زمنه، ولم يذكر بينهن أية امرأة أندلسية، شأنه في ذلك شأن ابن عبد ربه في كتابه **العقد الفريد** الذي توسع في الحديث عن نساء المشرق ولم يتعرض بإشارة واحدة إلى نساء الأندلس، وكتاب **الألفباء** للبلوي المالقي (ت 604هـ/1207م) الذي تحدث عن أخبار كثيرة تتعلق بالنساء وأحوالهن، لكنه اعتمد كسابقيه متنا مشرقيا صرفا، ونفس الشيء تقريبا يمكن أن يقال عن كتاب **صفات الحسن والجمال وسمات الملاحة والكمال**، لابن هذيل الأندلسي (ت 812هـ).[3]

o مظان تراجم وأخبار نساء الأندلس

هناك تنوع في المصادر التي تتضمن مادة علمية عن نساء الأندلس، وفي نفس الوقت هناك تكامل بينها أحيانا، ومن هذه المصادر كتب التراجم التي تقتصر على النساء اللواتي لهن صلة بالعلم والأدب؛ بينما تهتم كتب الأدب بالنساء الشاعرات وأشعارهن،[4] مع التعرض لكثير من الأشعار الرجالية التي طرقت أغراض الغزل ووصف المرأة وغير ذلك.[5]

إلى جانب هذين النوعين تهتم كتب النوازل والفقه والوثائق بالأحكام والفتاوى والأقضية وكتابة العقود المتعلقة بقضايا النساء عامة، حيث يتردد ذكر القضايا المتعلقة بالنساء في كتب النوازل الأندلسية، خاصة في المنازعات التي تتعلق بالمهر والطلاق والإرث والمزارعة والنسب والشهادات والنزاعات حول الملكية والعقود المختلفة ومنها عقود بيع الجواري والهبات للبنات. ونقف في بعض كتب النوازل على العديد من الإشارات إلى اعتداء الرجال على أملاك زوجاتهم أو بناتهم.

---

(1) تحقيق عبد المجيد التركي (بيروت: دار الغرب الإسلامي. ط. 1، 1412هـ/1992م).

(2) المالقي، أبو الحسن علي بن محمد المعافري (ت 605/1208)، **الحدائق الغناء في أخبار النساء**، تحقيق عائدة الطيبي (ليبيا-تونس، الدار العربية للكتاب، مطبعة الشركة التونسية، 1978).

(3) علي بن عبد الرحمان بن هذيل الأندلسي (ت 812 هـ/1409م)، **صفات الحسن والجمال وسمات الملاحة والكمال**، تحقيق أحمد بوغلا (الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2013).

(4) جلال الدين السيوطي، **نزهة الجلساء في أشعار النساء**، تحقيق عبد اللطيف عاشور (القاهرة: مكتبة القرآن، 2009)، أورد فيه أهم شواعر الأندلس وبعضا من أشعارهن.

(5) جمع كثيرا منها ابن الكتاني في **التشبيهات**، 119-228.

أما كتب التاريخ فركزت على الأدوار التاريخية لبعض النساء خاصة القريبات من بلاطات الأمراء والحكام من زوجات ومحظيات وقيان وغيرهن.[1]

وأولت كتب الحسبة من جهتها أهمية لبعض الأخطاء والتجاوزات المتعلقة بالنساء في المجتمع، والتي كان المحتسبون يتتبعونها ويوصون بمحاربتها وعلى رأسها التبرج والاختلاط.

o أهمية كتب التراجم

ذكرت كتب التراجم أسماء العديد من النساء، خاصة منهن العالمات والشاعرات والجواري؛ وقد اختلفت الأرقام بين المصادر، لكن كتاب **التكملة** لابن الأبار، خاصة في مخطوطة المكتبة الوطنية بالرباط، قد تفوق على باقي المصادر بإيراد 74 ترجمة للنساء،[2] وتبعه من حيث الأهمية كتاب **الذيل والتكملة** لابن عبد الملك المراكشي الذي استوعب 57 ترجمة، لكن حديثه عن النساء ينقطع بسبب ضياع قطعة من آخر السفر الثامن عند حديثه عنهن. بينما لم يترجم ابن بشكوال في كتاب الصلة سوى لـ 16 امرأة، وترجم ابن عميرة الضبي في بغية الملتمس لـ 13 امرأة، وابن الزبير في صلة الصلة لـ 5 نساء فقط، على أن بعض التراجم تتكرر في هذه المصادر.

يحتل القرنان الثالث والرابع الهجريان (9-10م) الصدارة بأكبر عدد من النساء، لكن الأعداد تقل بشكل ملحوظ بعد القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد. وللإشارة فقط فهناك بين هؤلاء النساء مجموعة عرفن بآبائهن فقط فلا تورد المصادر أسماءهن، بل تكتفي بنعتهن «بابنة فلان.» ومن الملاحظات المثيرة بخصوص التراجم المخصصة للنساء الاقتضاب الشديد الذي يتميز به أغلبها، حيث لا تزيد المعلومات في بعض الأحيان على ذكر الاسم والنسب. وفي بعض الحالات تذكر امرأة بمناسبة غزل قيل فيها فقط دون أدنى إشارة للتعريف بها، بينما ذكرت نساء أخريات بمدنهن أو مواهبهن كاللوشية الفقيهة نسبة إلى مدينة لوشة، أو الجارية الأسطرلابية نسبة للأسطرلاب الذي كانت تتقن التعديل به.

ومما تجدر الإشارة إليه بصدد المنهج المعتمد في إيراد التراجم لدى بعض مؤلفي هذه الكتب نقف على نقد لاذع وجهه ابن عبد الملك المراكشي لابن الأبار الذي ترجم في كتابه **التكملة** للعديد من الجواري والقينات، واستنكر ابن عبد الملك، من منظوره كفقيه ومحدث،

---

(1) حفلت بعض كتب التاريخ بأخبار مهمة مثل المقتبس لابن حيان، و**الذخيرة في محاسن الجزيرة** لابن بسام الشنتريني، و**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، للمؤرخ الأديب أحمد بن محمد المقَّري (ت1041هـ/1632م).

(2) وقد طبعت بتحقيق الدكتور عبد السلام الهراس، وفي الطبعة التي حققها الدكتور بشار عواد معروف نجد 75 اسما. انظر: ابن الأبار القضاعي، **التكملة لكتاب الصلة** (تونس: دار الغرب الإسلامي، ط. 1، 2011). [4 أجزاء].

بشدة أن تحشر تراجم هؤلاء النسوة إلى جانب تراجم «أهل العلم الذين هم خواص عباد الله،»[1] واعتبر إيراد تراجم القينات بالخصوص «وصمة وجرحة فيمن تعرض له، نستعيذ بالله من إعمال القلم في ذكر واحدة منهن، ونرى الإعراض عنه دينا،»[2] وأضاف أن إيراد ابن الأبار لهذه التراجم «عثرة لا تقال، وزلة لا تغتفر، وسيئة لا تكفير عنها، وكبيرة يجب المثاب منها، والإقلاع بتوفيق الله عنها، والله حسبنا ونعم الوكيل.»[3]

يبدو أن أخبار الجواري وتردد الحديث عنهن في المصادر الأندلسية قد أغرى ابن الأبار بتتبعها فتجاوز شرط كتابه المخصص أصلا لأهل العلم والأدب، وحسنا فعل؛ بينما كان ابن عبد الملك أكثر صرامة والتزاما بشرط كتابه الذيل والتكملة، ومع هذا فإنه لم يستثن بعض الجواري من الذكر غير أنه ذكر منهن من أخذن من العلم بطرف أو كن شاعرات أو أديبات.

ونعتقد أن المادة المتعلقة بالنساء في كتب التراجم على أهميتها البالغة لا تعكس إلا جانبا من تاريخ المرأة الأندلسية، ولا تغطي جميع أدوارها ولا تصور حدود حركيتها العامة في المجتمع.

o الدراسات المعاصرة حول المرأة الأندلسية

يتعزز البحث حول تاريخ نساء الأندلس باستمرار بدراسات موضوعية تسهم في إبراز بعض خفاياه وتوضيح بعض مهملاته، وهناك رصيد مهم من الدراسات الإسبانية حول المرأة الأندلسية[4] لا نشك في أن أكثرها إحاطة وشمولا هو كتاب نساء الأندلس للأستاذة منويلا مرين،[5] فضلا عن العديد من الإسهامات العربية.[6]

---

(1) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، السفر الأول، تحقيق إحسان عباس ومحمد بنشريفة (بيروت: دار الثقافة، 1964)، 13.

(2) ابن عبد الملك، **الذيل**، السفر 1، 13.

(3) المصدر نفسه، السفر 1، 13.

(4) EPALZA, Míkel de: «La mujer en el espacio urbano musulmán,» En: *La mujer en al-Andalus. Reflejos históricos de su actividad y categorías sociales*, M.J.Viguera Molins ed., Madrid (1989), 53-60 ; di Giacomo, Louis, «La littérature féminine en Espagne musulmane; causes de son développement,» *Hésperis*, t. XXXI, Fasc. Unique, (1944) :72 .

(5) MARIN, Manuela, *Mujeres en al-Andalus* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 2000).

(6) أحمد خليل جمعة، **نساء من الأندلس** (دمشق- بيروت: منشورات اليمامة، ط.1، 1418هـ/1997م)؛ يوسف بن أحمد حوالة، **المرأة في البلاط الأموي في الأندلس (138هـ/755م-422هـ/1030م): دراسة في سيرتها ودورها السياسي والاجتماعي والثقافي** (الكويت: حوليات كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية 24، الرسالة، 212، 1425هـ/2004م).

وبناء على بحث إحصائي دقيق توصل باحث إسباني إلى جمع أسماء حوالي 116 امرأة عالمة،[1] وأشارت منويلا مرين إلى أن عدد أسماء النساء المذكورة في المصادر المختلفة يصل إلى 296 اسما،[2] ويصل عدد الجواري بينهن إلى 138 جارية، الشيء الذي دفع إحدى الباحثات حول تاريخ ألمرية إلى المجازفة بالقول مثلا إن أكثر نساء هذه المدينة كن من الجواري،[3] وهذا مما لا يمكن التسليم به تاريخيا. وفي نفس الاتجاه يذهب أحد الباحثين إلى القول بأن توفر الجواري بكثرة في الأسواق الأندلسية قد أثر على الزواج، فكثرت العوانس.[4]

• مكانة المرأة في الأندلس وأدوارها

o أدوار مختلفة في مجتمع متعدد

كان المجتمع الأندلسي متنوعا من الناحية العرقية والدينية والاجتماعية،[5] إضافة إلى كونه شديد الحركية والصراع، لكن يبدو أن عناصره المختلفة لم تتمكن من تحقيق الاندماج المطلوب والانسجام الضروري الذي يضمن تماسك المجتمع وقوته للصمود في وجه التحديات، والتغلب على الصعوبات التي يفرضها الوضع الأندلسي المهدد باستمرار بالضغط النصراني المتربص بالبلاد كلها، فظلت الفئات الأندلسية المختلفة من العرب (قيسية ويمنية)، والأمازيغ، والمولدين، والصقالبة، والنصارى، واليهود تشكل مجتمعا غير مندمج تماما، رغم ما عرفه من تعايش واضح، وسرعان ما كانت التناقضات الاجتماعية تطفو إلى السطح في شكل اصطفافات عرقية لمجرد وقوع أحداث بسيطة. وقد ظهر عدم الانسجام في الانزلاق نحو تفتيت البلاد إلى دويلات صغيرة فيما عرف بعصر الطوائف (422-484هـ/1031-1092م).[6]

---

(1) AVILA María Luisa, «Las mujeres sabias de al-Andalus,» En: *La mujer en al-Andalus. Reflejos históricos de su actividad y categorías sociales*(Madrid: M.J.Viguera Molins ed., 1989),139-184.

(2) MARIN Manuela, *Mujeres en al-Andalus* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas 2000), 47.

(3) مريم قاسم الطويل، **مملكة ألمرية في عهد المعتصم بن صمادح 443-448هـ/1051-1091م** (بيروت: دار الكتب العلمية، ط. 1، 1414هـ/1994م)، 79.

(4) إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع – الذهنيات – الأولياء** (بيروت: دار الطليعة، 1993)، 22.

(5) - انظر حول التنوع العرقي والاجتماعي في الأندلس النص الثمين لابن الأحمر، **بيوتات فاس الكبرى** (الرباط: دار المنصور، 1972)، 22-25.

(6) انظر على سبيل المثال وصف ابن عذاري المراكشي لوصف فتنة البربر بقرطبة سنة 401هـ/1011م، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج. 3، تحقيق كولان وليفي-بروفنصال (بيروت: دار الثقافة، 1983)، 105-107.

من جهة أخرى كان هذا المجتمع ذا تقاليد ثقافية وعلمية راقية وعميقة في التربة الأندلسية، لذلك لم تستطع الأزمات المختلفة والمتعاقبة أن تنال منها، ومنها الأزمة السياسية العامة والخانقة المتمثلة في عصر الطوائف، هذا العصر الذي صار من أرقى عصور الثقافة الأندلسية، وهذا من المفارقات التي ينبغي الوقوف عندها مليا عند تحليل طبيعة المجتمع الأندلسي.

وسط هذا المجتمع الذي يموج بالأعراق والتطلعات والحسابات المختلفة والصراعات المتأججة، فضلا عن الاهتمام الكبير بالعلم والأدب كانت المرأة الأندلسية حاضرة بقوة في مجالات متعددة ركزت المصادر بشكل أكبر على بعضها فقط، خاصة ما يتعلق بالإسهام في المجال الأدبي، كما كان لنساء البلاط من حرائر وجواري نصيبهن من الاهتمام، وكانت الجواري إضافة إلى وظيفتهن الترفيهية، ينهضن بأدوار سياسية لا تخلو من خطورة أحيانا.

o ظاهرة الزواج المختلط وآثارها

من الواضح أن من الظواهر الاجتماعية التي ميزت المجتمع الأندلسي وأسهمت المرأة فيها بشكل مباشرة ظاهرة اختلاط الأنساب، سواء الناتجة عن الحروب كاسترقاق النساء، أو الناتجة عن الزواج الطوعي بين مختلف فئات المجتمع الأندلسي، أو عن طريق الزواج السياسي الذي كان منتشرا بين الطبقات الحاكمة في الأندلس وبين بلاطات الملوك النصارى في عهود الازدهار، والأمثلة متعددة على ذلك،[1] من أشهرها أول زواج مختلط تم بين العرب والإسبانيات، وهو زواج عبد العزيز بن موسى بن نصير بإيخلونا[2] أرملة لذريق (Rodrigo)، آخر ملوك القوط، وزواج المنصور بن أبي عامر بعبدة ابنة شانجة الثاني (Sancho Garcia II)، ملك نافارا، وقد أسلمت عبدة وحسن إسلامها وأنجبت المنصور عبد الرحمن الذي تولى حكم الأندلس بعد أخيه عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر. وكان معروفا باسم شنجول، وهو تصغير لاسم جده لأمه شانجة.[3]

---

(1) انظر مثلا، ابن القوطية (367هـ/977م)، **تاريخ افتتاح الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبياري (القاهرة: دار الكتاب المصري، ط. 2، 1410هـ/1989م)، 7-9؛ حسين يوسف دويدار، **المجتمع الأندلسي في العصر الأموي (138-422هـ/ 755-1030م)** (القاهرة: مطبعة الحسين الإسلامية، ط. 1، 1414هـ/1994م)، 70-74.

(2) تسميها المصادر العربية أيلة، وتكنيها أم عاصم، انظر: ابن عذاري، **البيان**، ج. 2، 24؛ ابن عبد الحكم، **فتوح**، 285.

(3) ابن الخطيب، **إعلام الأعلام**، نشر ليفي بروفنصال (بيروت: دار المكشوف، 1956)، 66، 73؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 3، 83؛ محمد بن عبد الله بن الأبار، **الحلة السيراء**، ج. 1، تحقيق حسين مؤنس (القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، د. ت.)، 272.

o المرأة والنشاط الحربي

ظل المجتمع الأندلسي مهددا بالحرب في جميع أطواره، أمام الإصرار العجيب لنصارى الأندلس على استرجاع ما فقدوه منذ الفتح الإسلامي للجزيرة الإيبيرية، وكان الضغط النصراني يقوى ويتراجع حسب قوة الدولة الأندلسية، فضلا عن الاقتتال الداخلي وتواتر الفتن والثورات والخروج على السلطة الأموية وغيرها، ونقف في إحدى حالات الاقتتال الداخلي على مشاركة نسائية في الأعمال الحربية وإن بطريقة خداع العدو، مثلما حصل سنة 225هـ/840 م حينما أراد القائد محمود ابن عبد الجبار المارديّ الثائر بماردة إيهام مهاجميه بكثرة عدد جيشه «بأن أمر نساءهم بإسبال الشعور، وركوب الزوامل،[1] ولبس فضل الأسلحة، والوقوف بناحية يتخيلهم أهل باجة على البعد أنهم رجال ردء لمن تقدم نحوهم، ففعلن ذلك، وقامت بهن أخته جميلة، ووضع بيدها علما من أعلامه أمرها أن تسير بهن خلفه على تؤدة،»[2] حتى إذا حمي وطيس المعركة واشتد القتل في أصحاب المارديّ «أشرفت جميلة أخت محمود في مركب النساء من كدية مطلة، والعلم مرفوع بيدها. فلما نظر أهل باجة إلى جمعها لم يشكوا أنه مدد لمحمود أو عسكر ردف له، وأن الذين صلوا بأسهم أهل مقدمته فخامرهم خوفه إلى ما كان نالهم من شدة الحرب وضيق الأزل فانكشفوا ومضوا منهزمين لا يلوون على شيء ... وحسن بلاء جميلة أخت محمود في هذه الحرب، وأبلت فيها حتى تحدث الناس ببلائها في أقطار الأندلس، وتغنوا بها في الأعراس ببلد الغرب دهرا.»[3]

ورغم وقوفنا هنا أمام حالة واحدة فقط للمشاركة الفعلية في الحرب، فقد توخينا من ذلك إثارة الانتباه إلى هذا الموضوع الذي تتفرق الإشارات حوله، ولاسيما ما يتعلق بسبي النساء أثناء الحروب مع النصارى، ومعاناتهن في الأسر.[4]

o أوصاف نساء الأندلس

لم تصرف المصادر الأندلسية نظرها عن صورة المرأة الأندلسية ككائن يمثل الجمال والأنوثة ويحتفي بالدلال والزينة، ومن أجل التعرف عن قرب على بعض أوصاف نساء الأندلس

---

(1) هي الدواب الصبورة على حمل الأثقال.

(2) ابن حيان، **المقتبس الثاني** (مدريد: طبعة فكسملية للمخطوط، مدريد، 1999)، صفحة 182أ.

(3) ابن حيان، **المقتبس الثاني**، صفحة 182ب.

(4) انظر عن سبي ومعاناة النساء وسعي أهالي بعضهن في فديتهن وامتناع النصارى، في خبر هجوم النصارى على بربشتر سنة 456هـ/1064م، ابن بسام: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، القسم الثالث، الجزء الأول، تحقيق الدكتور إحسان عباس (تونس: الدار العربية للكتاب، 1979)، 188-197؛ وانظر أيضا بعض أخبار سبي الأندلسيات في ابن بسام، الذخيرة، القسم الثالث، الجزء الخامس، 140-141؛ ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، القسم الثاني، 24.

ننصت إلى ابن الخطيب وهو يصف نساء غرناطة في عصره وصف أديب متذوق معجب بمحاسنهن ودلالهن، ومؤرخ دقيق الوصف لما يشاهده من أحوالهن، وفقيه متحفظ من بعض ما لا يرضى عنه من تصرفاتهن، وصوفي يسأل الله أن يشملهن بلطفه ويعمهن بستره، حيث قال: «وحريمهم [أي أهل غرناطة] حريم جميل، موصوف بالسحر وتنعم الجسوم واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر،[1] وخفة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المجاورة، إلا أن الطول يندر فيهن. وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد والمظاهرة بين المصبغات والتنفيس بالذهبيات والديباجيات، والتماجن في أشكال الحلى إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر ويكفكف الخطب، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة، وأن يعامل جميع من بها بستره ولا يسلبهم خفي لطفه بعزته وقدرته.»[2] وفي المتن الشعري الأندلسي تظهر صورة المرأة بشكل أقوى حيث يتفنن الشعراء والتغزل بوصف جمالها ومحاسنها، كما أن عددا من الشاعرات الأندلسيات لا يخفين موقفهن من الرجل.[3]

o حرية المرأة

أثارت مسألة حرية المرأة الأندلسية اهتمام العديد من الباحثين، ورددوا أنها كانت تعيش تحررا كبيرا إلى درجة التحلل من التقاليد الإسلامية، وذلك اعتمادا على جرأة بعض الأشعار النسائية القليلة، مقارنة بتحفظ الشعر النسائي المشرقي. لقد ركزت بعض هذه الدراسات على تحرر نساء الأندلس وغشيانهن المجالس، وفسر هذا التحرر على أنه أقرب إلى التهتك في القول والفعل، ومن المخالف للمنهج العلمي أن يتم تعميم حكم خطير مثل هذا فقط على أساس شعر وسلوك ولادة بنت المستكفي وأشعار ابن زيدون (ت 463هـ/1071م) فيها، وعلى أساس علاقتها بصديقتها مهجة، ولو أن الأمر توقف عند ولادة لكان أهون، فالاختلاف حول شخصيتها مقبول تماما بناء على المعطيات المصدرية كما على نصوصها الشعرية، لكن عدم الانتباه إلى السلوك المنضبط والصون التام الذي كانت عليه سائر أديبات وشاعرات الأندلس فضلا عن غيرهن يجعل تعميم سلوكها المفترض على مجتمع بأكمله ضربا من المجازفة. وحتى أمام المعطيات الأوفر حول ولادة وشعرها فإننا لا نملك لحد الآن دليلا تاريخيا قويا يؤكد مجون ولادة أو تهتكها في حياتها الواقعية، حيث لم تجمع المصادر على ذلك،[4] وإنما كون

---

(1) الرائحة الزكية.

(2) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج. 1، تحقيق محمد عبد الله عنان. ج. 1 (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1981)، 139.

(3) أحمد حاجم الربيعي، **صورة الرجل في شعر المرأة الأندلسية، دراسة تحليلية** (عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع، 1435هـ/2014م)، 12-57.

(4) ثريا ليهي، «قراءة جديدة في تراجم ولادة،» **كراسات أندلسية** (1)، نشر مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، الرباط (2006): 159-176.

الباحثون صورتها من خلال شعرها فأسقطوه على حياتها، ومن خلال الأخبار عن مجون أبيها لا من خلال أخبارها هي، وهذه مسألة في حاجة إلى تحر ومراجعة، خاصة وأن بعض المصادر قد أشارت إلى عفاف ولادة التام رغم جرأة شعرها.

يعد الشعر بطبيعة الحال مصدرا تاريخيا مهما، لكن الاستنتاج التاريخي استنادا إلى الشواهد الشعرية وحدها غير كاف لتكوين صورة واضحة عن الواقع التاريخي، ولنا في مبالغات المعتمد بن عباد ملك إشبيلية عن ظروف أسره بأغمات خير مثال على اختلاق وقائع متخيلة أثرت على التناول التاريخي لظروف أسر المعتمد بطريقة تدعو للتساؤل إلى حد أن أحد الباحثين صرح بالقول: «وتجمع المصادر على أن بنات المعتمد بن عباد كن يغزلن الصوف للناس بالأجرة في مدينة أغمات،»[1] مع أن أيا من أبناء المعتمد أو بناته لم يرافقه إلى منفاه. والواقع أن كثيرا من الأحكام لا يمكن الاعتماد فيها كلية على الشعر الذي لا يمثل بالضرورة وصفا دقيقا للواقع التاريخي، بما هو إبداع يغلب عليه جانب الخيال والصنعة، لذلك يعتمده المؤرخ المحترف باحتياط شديد.

في المقابل لا ينبغي أن ننسى أن ولع حكام الأندلس ونخبها بالقيان والجواري قد فتح الباب واسعا أمام تسرب العديد من السلوكات التي شاع الحديث عنها في المجتمع الأندلسي بالتدريج، والتي بسبب غرام المؤلفين بها صور المجتمع الأندلسي كله على أنه وسط متفسخ قليل الاهتمام بالقيم والمراعاة لأصولها. وفي هذا الاتجاه تضمنت بعض البحوث مبالغات كثيرة حول تحرر المرأة الأندلسية.[2]

وقد ناقشت الدكتورة ماريا خسوس بيغيرا آراء العديد من الباحثين في مسألة تحرر نساء الأندلس فخلصت إلى القول «بأن الحقائق لا تقر بوجود حرية فعلية للنساء في الأندلس،»[3] والمقصود هنا تلك الحرية غير المنضبطة التي تحمس البعض لإلصاقها بالمجتمع الأندلسي. ويبدو من خلال الأدبيات التاريخية التي ازدهرت في الأندلس مثل العقد الفريد لابن عبد ربه (ت 328هـ/940م) أو بهجة المجالس لابن عبد البر القرطبي (ت 463هـ/1071م) أو كتاب الألف باء ليوسف ابن الشيخ (ت 604هـ/1208م) أو كتاب الحدائق الغناء للمالقي (ت 605هـ/1209م) استمرار حضور التقاليد المشرقية في النظر إلى المرأة سواء كانت حرة

(1) القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس**، 45، وذلك اعتمادا على مصدرين مشرقيين، هما **وفيات الأعيان** لابن خلكان، ج. 5، 35، و**شذرات الذهب** لابن العماد، ج. 3، 288.

(2) أبو حسين محمد صبحي، **صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين** (عمان: عالم الكتاب الحديث، 2005)، 31، 32، 34، 47، 89؛ مدلج جودت، **الحب في الأندلس، ظاهرة اجتماعية بجذور مشرقية** (بيروت: دار لسان العرب، 1985)، 117.

(3) ماريا خسوس بيغيرا، «أصلح للمعالي: عن المنزلة الاجتماعية لنساء الأندلس،» **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، ج. 2 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1999)، 995-1018.

أو جارية، وهي القيم التي كانت تمجد العفاف والعرض والشرف، والتي ظلت لها مكانتها في المجتمع الأندلسي، غير أننا لا يمكن أن نستبعد أن اختلاط المجتمع بوجود عدد كبير من النساء القشتاليات وغيرهن لن يؤدي إلى تسرب عادات اجتماعية كثيرة تعتبر غريبة عن المجتمع الإسلامي. وفي هذا الاتجاه استنتج الأستاذ بيير كيشار من عادات وممارسات المجتمع الأندلسي تعايش البنيات الشرقية والغربية على أرض الأندلس، هذا التعايش الذي وصل إلى حد الازدواجية في السلوك والشخصية أحيانا؛[1] لكن هذه الازدواجية تظل مع ذلك نسبية حينما نقف على دقائق أخبار المجتمع وضوابط سلوك المرأة في علاقاتها بوسطها، وهذا من القضايا التي على المؤرخين أن يتناولوها بالتدقيق والمراجعة.

على كل حال فقد كان خروج المرأة للمشاركة في المناسبات العامة أمرا مألوفا في الأندلس، وقد استنكر أبو بكر الطرطوشي بعض احتفالات مسلمي الأندلس فقال: «ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان، وكذلك إقامة ينير بابتياع الفواكه كالعجم، وإقامة العنصرة وخميس أبريل بشراء المعجنات والإسفنج، وهي من الأطعمة المبتدعة، وخروج الرجال جميعا أو أشتاتا مع النساء مختلطين للتفرج، وكذلك يفعلون في أيام العيد ويخرجون للمصلى ويقمن فيه الخيم للتفرج لا للصلاة، ودخول الحمام للنساء مع الكتابيات بغير مئزر.»[2] ومن الشواهد على الاختلاط في المناسبات العامة الوصف الأدبي البليغ لمناسبة استقبال سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف بن نصر بمدينة وادي آش سنة 755هـ/1354م من قبل ابن الخطيب حيث قال: «اختلط النساء بالرجال، والتف أرباب الحجا بربات الحجال، فلم نفرق بين السلاح والعيون الملاح، ولا بين حمر البنود وحمر الخدود.»[3]

ومن خلال أدبيات الحسبة نستنتج أن مسؤولي المدن الأندلسية كانوا حريصين على مراعاة احترام القيم ومراقبة الاختلاط في الأماكن العامة خلال المناسبات المختلفة، لذلك نبه ابن عبدون في رسالة الحسبة على ألا «يترك الشباب أيام العيد يجلسون فيها على الطريق لاعتراض النساء، ويجد في منع ذلك المحتسب والقاضي. يجب أن يمنع السلطان أن يجلس على أفنية القبور لمراودة النساء، ويتعاهدن بذلك كل يوم مرتين يفعل ذلك المحتسب،»[4] وشدد

(1) Pierre Guichard, *Structures sociales Orientales et Occidentales dans l'Espagne Musulmane* (Paris-Lahaye: Ed. Mouton, 1977).

(2) الطرطوشي، **الحوادث والبدع**، تحقيق محمد الطالبي (تونس: منشورات كتابة الدولة للتربية بتونس، 1959)، 140-142.

(3) لسان الدين ابن الخطيب، **مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس**، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي (الأسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1983)، 50.

(4) ابن عبدون، **رسالة في الحسبة**، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة، تحقيق ليفي بروفنصال (القاهرة: مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للاثار الشرقية 1955)، 27.

ابن عبد الرؤوف من جانبه على أهمية «منع النساء من الوقوف على أبواب الدور لما فيه من الكشف وعدم الاستتار.»[1] في حين رأى السقطي ضرورة حماية النساء من المشعوذين، حيث جعل من واجب المحتسب «ألا يترك المبهرجين والمهذرين يجعلون مجالسهم إلا في الشوارع السالكة أو حيث يجتمع الناس، ويمنعون من أن يهذروا على النساء ولا على جهال الرجال بكهانة ولا كتاب محبة ولا بعضه ... فكل ذلك باطل.»[2] وعلى غرار المحتسبين كان موقف الفقهاء من الاختلاط، ومن إقامة الاحتفالات المبتدعة والسلوكات المتفلتة صارما، وذلك كما عبر عنه القاضي ابن المناصف حينما أكد أنه «ينبغي للقضاة أو الحكام البحث والكشف عما اشتهر ذكره من المناكر، وعرف بالجملة ظهوره وانتشاره، وأنس الناس به، كاتخاذ النساء في السرور والحزن والمآثم يجتمعن لأنواع الملاهي والمناكر في الديار والمحلات، وبعض الشوارع والحمامات، وما أشبه ذلك.»[3]

وإلى جانب كل ما سبق نسجل أن المرأة الأندلسية تمتعت بقدر لا بأس به من الحرية العاطفية، حيث أورد ابن حزم في كتابه طوق الحمامة قصصا عن نساء شريفات تعلقن بحب رجال من عامّة الناس. وكانت الرسائل الغرامية تتبادل بينهم، وفي بعض الأحيان كانت تلك العلاقات تكتشف فتصير حديث المجالس.[4] ونقف أيضا في هذا الصدد على خبر يتعلق برجل يدعى ناصح الجزيري المتقفي الذي كلفت به امرأة فاشترته وأعتقته وتزوجته وحبست عليه ضيعة لها.

ومن القصص التي تعبر بوضوح عن حرية بعض النساء الأندلسيات في تقرير مصيرهن قصة جارية القاضي المنذر بن سعيد البلوطي (ت 355هـ/966م) الذي كان من أشهر قضاة قرطبة متصفا بالعدل والصلابة في الحق، وكان يهيم بحب جارية له، فعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها، لكن الجارية أخبرته أنها تستبشع لحيته العظيمة، وأمرته ساخرة أن ينقص منها حتى ترضى به زوجا، فقص من لحيته حتى خفت، ثم أعتقها على رؤوس الأشهاد ثقة بما كان يؤمله منها، ولما خطبها لنفسه رفضته وفضلت الزواج من غيره.

(1) ابن عبد الرؤوف، **رسالة في الحسبة**، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة، تحقيق ليفي بروفنصال (القاهرة: مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للاثار الشرقية 1955)، 311.

(2) أبو عبد الله محمد السقطي، **كتاب في آداب الحسبة**، تحقيق خليل خلف الجبوري (بيروت: دار الكتب العلمية، 2016)، 67-68.

(3) ابن المناصف، **تنبيه الحكام**، تحقيق عبد الحفيظ منصور (تونس: دار التركي للنشر، 1988)، 324.

(4) ابن حزم، **طوق الحمامة**، تحقيق حسن كامل الصّيرفي (القاهرة: مطبعة حجازي، 1950)، 44 و104.

o المواقف من المرأة

كانت مواقف بعض نخب المجتمع الأندلسي من المرأة متحفظة، وكان يخشى من المرأة التي تملك أمر الرجل وتتحكم في شؤونه وتستعمله لقضاء مصالحها وتلبية رغباتها، وهكذا فقد عبر بعض العلماء عن مواقف شخصية مختلفة من النساء، ومن ذلك تعليق ابن حزم على اهتمام النساء بتزويج الفتيات وتيسير أمور الأعراس حين قال: «وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء إلا أنهن متفرغات البال من كل شيء إلا من الجماع ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتآلف ووجوهه، لا شغل لهن غيره، ولا خلقن لسواه، والرجال مقتسمون في كسب المال وصحبة السلطان وطلب العلم وحياطة العيال ومكابدة الأسفار والصيد وضروب الصناعات ومباشرة الحروب وملاقاة الفتن وتحمل المخاوف وعمارة الأرض.»[1] أما ابن عبدون فيرى أن «الجهل والخطأ فيهن أكثر،»[2] ولا يخفي ابن الخطيب موقفا صارما من النساء، فقال في وصيته الطويلة لأبنائه: «وطاعة النساء شر ما يفسد بين الإخوان ... وإذا أعظم النساء شيئا فاحتقروه».[3] فقد ذكر أبو الوليد الباجي (ت 474هـ/1081م) في وصيته لولديه «إن طاعة النساء تفسد الدين والدنيا.»[4]

أما الفيلسوف القرطبي أبو الوليد ابن رشد، فقد حاول أن يعلق على موقف الفيلسوف اليوناني أفلاطون من المرأة في كتابه السياسة، بأسلوب جدلي ليبين أن المجتمع يتحكم من جانبه في وظائف النساء، مع الإقرار بأن طاقة النساء لا تبلغ طاقة الرجال في القيام بالكثير من الأعمال. وبما أن عدد النساء يكون ضعف عدد الرجال، فإن ذلك يؤثر سلبا على رفاه المدن. وبسبب تربيتهن فإنهن لا يحسن سوى قدر محدود من الأعمال يلجأن إليها حينما يحتجن إلى إعالة أنفسهن مثل الحياكة والغزل.[5]

أما المواقف الاجتماعية من المرأة فيبرز بعضها من خلال الأمثال العامية الأندلسية، ومنها على سبيل التمثيل بعض الأمثال التي تعتبر المرأة عبئا حقيقيا مثل «هم البنات للممات،» و«من عند ولية عندو بلية،» ونظرة الحذر من المرأة العجوز مثل «إذا رأيت عجوز

---

(1) المصدر نفسه، 165.

(2) ابن عبدون، **رسالة في الحسبة**، 46.

(3) المقري، **أزهار الرياض**، ج. 1، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (تطوان: نشر المعهد الخليفي للأبحاث المغربية، تطوان، مطبعة لجنة التأليف بالقاهرة، 1358هـ/1939م)، 334.

(4) القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس**، 43. ولم نجد هذا النص في الطبعة التي أصدرها إبراهيم باجس عبد المجيد بعنوان: **النصيحة الولدية، نصيحة أبي الوليد الباجي لولديه** (بيروت: دار ابن حزم، ط. 3، 1421هـ/2000م).

(5) أبو الوليد بن رشد: **الضروري في السياسة، مختصر كتاب السياسة لأفلاطون**، نقله من العبرية إلى العربية الدكتور أحمد شحلان (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط.1، 1998)، 124-126.

اذكر الله وجوز،» ونظرة الأسف على من يموت ويترك خلفه بنات مثل «ويا على من مات وخلى سبع بنات.»[1]

o المرأة والصلاح

ارتبط ذكر عدد لا بأس به من النساء الأندلسيات بالصلاح والزهد والتصوف، فقد تحدثت المصادر عن جوانب مختلفة من ذلك كإقبال بعضهن على العبادة وقيام الليل، وغلبة مظاهر التقوى والزهد عليهن، وامتناع بعضهن عن الزواج قصد التفرغ للعبادة، إضافة إلى ما عرف عن بعضهن من فعل الخير وبناء المساجد. وهذه الصورة تتكرر في الزمان والمكان، فالصلاح لم يكن مقتصرا على ذوات النزوع الصوفي، بل عم نساء الخلفاء والجواري والعالمات وغيرهن.

أشار المؤرخ ابن حيان إلى جانب من إقبال نساء البلاط الأموي على أعمال البر مثل تنافسهن في بناء للمساجد، حيث نقل عن الرازي قوله: «وفي أيام الأمير عبد الرحمان [ابن الحكم] ابتنيت المساجد الجامعة بكور الأندلس واستوسعت فيها إقامة الجمع ورفع الأدعية، وتناغى كبار حظاياه، وتنافس جواريه، ومقصورات نسائه في ابتناء المساجد الرفيعة بقرطبة، وكان فيهن يومئذ خير كثير، تبارين به في الأعمال الصالحة، توسعن بالإنفاق في أبواب الزلفة واكتملت بأرض قرطبة وقصبتها من رفعهن مساجد مشيدة البناء، واجبة الأوقات، آهلة القطين، طالت عمارتها بذكر الله تعالى حقبة، منسوبة إليهن، متعرفة بأسمائهن كمسجد طروب، ومسجد فخر، ومسجد الشفاء، ومسجد متعة وأشباههن بما يكثر عدده ولا يجهل مكانه. فكانت آثار هؤلاء الحرم في هذا الباب وما اتصل بها حلل للدولة.»[2] وأصبح لبعض هؤلاء النسوة الفضليات مكانة في نفوس عامة الناس مثل البهاء بنت الأمير عبد الرحمن بن الحكم التي توفيت سنة 305هـ/917م، و«لم يتخلف أحد عن جنازتها.»[3]

مقابل هذا الإقبال على العمل الخيري في صفوف نساء البلاط في العصر الأموي، انتشرت الحركة الصوفية في الأندلس فيما بعد، وقد انخرطت فيها النساء أيضا، ومنهن من بلغن درجة المشيخة، مثل فاطمة بنت المثنى، التي كانت حية بإشبيلية سنة 618هـ/1221م، وقد تجاوزت التسعين من عمرها، تتلمذ لها الصوفي الشهير محي الدين بن العربي الحاتمي (ت 636هـ/948م) مع عدد آخر من صوفية الأندلس. وكان ابن العربي قد بنى كوخا من

(1) أورد هذه الأمثال الزجالي في كتابه **أمثال العوام في الأندلس**، ج2، تحقيق محمد بنشريفة (فاس: مطبعة محمد الخامس، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل، 1975)، 12، 243، 291.

(2) ابن حيان، **المقتبس** الثاني، صفحة 142أ.

(3) ابن عذاري، **البيان**، ج. 2، 171.

القصب في أرياف إشبيلية ليكون قريبا من هذه المرأة الصالحة وليتعلم منها عيشة العزلة والزهد.[1] وأدرك ولية أخرى بمرشانة الزيتون كان اسمها شمس أم الفقراء.[2]

ومن صالحات الأندلس أيضا امرأة عرفت برشيدة الواعظة، عاشت خلال العصر الموحدي و«كانت تجول في بلاد الأندلس تعظ النساء وتذكرهن، وكان لها صيت واتصاف بالخير».[3] ومن دائرة الزهاد أيضا العالمة أم الهناء بنت القاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية التي ألفت كتابا في القبور[4] للتذكير بمآل الإنسان بعد الوفاة. هذه نماذج من عدد أكبر من الأسماء التي تغطي أغلب عصور الأندلس.

o المرأة في الصراع الإسلامي المسيحي

بحكم وجود الحروب الدائمة بين المسلمين والنصارى بالأندلس، كانت ظاهرة أسر النساء واتخاذهن جواري شائعة في المجتمعين الإسلامي والنصراني على حد سواء، ورغم أن المصادر العربية ركزت أكثر على وجود الجواري الروميات عند المسلمين فإن الإسبان كانوا هم أيضا يأسرون الكثير من النساء عند اقتحامهم للمدن الأندلسية ويسترقونهن، وكانت منهن أحيانا بعض القينات.

على خلاف النساء التي ألقت بهن الظروف في الأسر تستوقفنا في خضم التدخل المرابطي في الأندلس حالة امرأة فضلت الفرار من قرطبة والالتحاق بالنصارى وتدعى زايدة، وتعرف في المصادر الإسبانية بزايدة المسلمة (Zaida la mora). وقد ذكرت بعض المصادر الإسبانية أنها ابنة للمعتمد ابن عباد ملك إشبيلية، وأنه زوجها لملك قشتالة تقربا إليه، وهذا لم يصح، والغالب أنها أمة من أصول إسبانية، كانت زوجة للمأمون بن المعتمد بن عباد، وقد فضلت الالتحاق بقومها بعد مقتل زوجها الذي كان واليا لوالده على ولاية قرطبة، فلما دخلها عليه المرابطون حاربهم حتى انهزم جيشه وقتل، ففرت زوجته زايدة هذه إلى قشتالة وارتدت إلى النصرانية، ثم تزوجها الملك ألفونسو السادس أو اتخذها خليلة، لكنها لم تلبث أن توفيت أثناء وضع ابنه دون سانشو (Don Sancho)، ودفنت بأحد الأديرة في شمال إسبانيا. وقتل ابنها هذا، في عهد أبيه، في معركة أقليش ضد المرابطين سنة 501هـ/1108م. ولا تذكر المصادر العربية لزايدة نسبا.[5]

---

(1) آسين بلاثيوس، **ابن عربي**، ترجمة عبد الرحمن بدوي (الكويت: وكالة المطبوعات؛ بيروت: دار القلم، 1979)، 27-28؛ محمد محمود الغراب، **شرح رسالة روح القدس** (دمشق: دار الفكر، 1985)، 132-133؛ ابن عربي، **الفتوحات المكية**، ج. 1، 273، وج. 2، 347.

(2) الغراب، **شرح رسالة**، 131؛ عمر رضا كحالة، **أعلام النساء**، ج. 2 (بيروت، مؤسسة الرسالة، 2011)، 304.

(3) ابن الأبار، **التكملة**، ج. 4، 259، رقم 251. ونفسه عند ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، ج. 8، 485.

(4) ابن الأبار، **التكملة**، ج. 4، 257-258.

(5) ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، 253؛ ليفي بروفنصال، **الإسلام في المغرب والأندلس**، 151.
Levy-Provençal, «La mora Zaida,» *Hespéris,* T.XVIII (1934): 1-8.

ويتعلق نموذج ثان بمريم بنت الوزير أبي القاسم بن رضوان بنيغش، من أصل قشتالي، كان الاسم القديم لأسرتها هو (Venegas)، تزوجها يحيى النيار، قائد ألمرية في عهد السلطان أبي عبد الله، آخر ملوك الأندلس، وفي خضم السنوات الأخيرة قبيل سقوط غرناطة والتي اتسمت بضغط نفسي قوي على المسلمين، فضلا عن الضغط العسكري، تنصرت مريم هذه رفقة زوجها وابنها علي ومعظم أفراد أسرتها للنجاة مما كان النصارى يتوعدون به مسلمي غرناطة،[1] وفي مقابل هذا الموقف المتهاون كانت الحرة أم السلطان أبي عبد الله أقوى شكيمة عندما وبخت ابنها في لحظات تسليمه لغرناطة.

- **ثقافة النساء**

  - **الاهتمامات العلمية للمرأة الأندلسية**

انتقلت مع الفتح الإسلامي تقاليد علمية وثقافية إلى هذا البلد الذي ظل يرزح تحت ظلمات العصور الوسطى الأوروبية لفترة طويلة. وقد تسارعت خطى الحضارة الإسلامية بالأندلس التي عرفت تلاقحا ثقافيا واجتهادا علميا في مجالات العلوم الدينية واللغوية والعقلية وغيرها. ويكفي إلقاء نظرة على كتب الطبقات والفهارس لتكوين فكرة شاملة عن طبيعة الحركة العلمية التي عرفها تاريخ الأندلس والتي استمرت متأججة لقرون عديدة.

ومن معالم التطور الحضاري في المجال العلمي بالأندلس عدم اقتصار النبوغ العلمي على الرجال، بل كان للنساء فيه حضور ومشاركة وتألق في مختلف مراحل هذا التاريخ. فكانت منهن العالمات والأديبات والشاعرات والمؤلفات.

ومن بين نساء الأندلس اللائي برزن في ميادين الحياة المختلفة واللائي احتفظت المصادر بذكرهن، مجموعة لا بأس بها ممن انشغلن بالتحصيل العلمي والأدبي وقطعن فيهما أشواطا، وكانت لهن إسهامات في الحياة الثقافية تعلما وتعليما ومشاركة. ومنهن من رحلن للقاء الشيوخ بمدن وأقطار أخرى. وكانت بعض النساء العالمات قد أخذن العلم في أوساط أسرهن خاصة بالنسبة لمن كان آباؤهن من العلماء. وتزوجت بعض النساء العالمات من رجال علماء فأخذن عنهم وازداد ارتباطهن بالعلم. وملكت بعض النساء مكتبات ورثنها عن آبائهن، ومنهن من حبست كتبها. ونبغت إحداهن في الفقه حتى نسي اسمها وصارت تعرف بتخصصها فقط، وسمتها المصادر باللوشية الفقيهة.[2]

(1) محمد عبد الله عنان، **نهاية الأندلس** (القاهرة: مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، 1987)، 315.
(2) المقري، **نفح الطيب**، ج. 4، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر، 1968)، 294.

ونسوق حديثا لابن حيان عن العالمة عائشة بنت أحمد القرطبية يقف كشاهد على مستوى بعض عالمات الأندلس، حيث قال: «لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعادلها علمًا، وفهمًا وأدبًا وعزًا، كانت تمدح ملوك الأندلس، حسنة الخط، تكتب المصاحف والدفاتر، وتجمع الكتب، وتعنى بالعلم، ولها خزانة علم كبيرة، توفيت سنة 400 هجرية.» وفي كتب التراجم الأندلسية الشهيرة جرد بأسماء وتراجم عالمات وفقيهات وأديبات الأندلس، وهي رغم اختصارها كفيلة بأن توضح معالم تاريخ هذه الفئة.

o الأدبيات والشاعرات[1]

بالغت بعض المصادر حينما أوصلت عدد شاعرات الأندلس إلى ستين ألف شاعرة. فرغم أن الرقم غير صحيح فإن للمبالغة دلالة على أن نبوغ الأندلسيات في الشعر حقيقة لا مراء فيها. فكثير من شواعر الأندلس نشأن في بيوت شعر وتشبعن بالثقافة الأدبية وتابعن مجالس تطارح الشعر في أوساطهن الأسرية.

يختلف المتن الشعري بين شاعرات الأندلس، من شطر بيت كما هو الشأن بالنسبة لاعتماد الرميكية، هذا الشطر الذي كان سبب زواجها من المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، وبين عدة مقطوعات كما هو الشأن بالنسبة لحفصة الركونية[2] أو نزهون القليعية أو حسانة التميمية. ونلاحظ أن جانب علاقة المرأة الأندلسية بالشعر قد درس بما يكفي من قبل الباحثين العرب أو الغربيين سواء الشعر الذي قالته أو الذي قيل فيها.[3]

وكما هو الشأن بالنسبة لما قيل عن سلوك المرأة فقد ذهبت بعض الدراسات إلى القول بتحرر الشعر النسوي الأندلسي إلى حد الخلاعة، وهذا حكم فيه مبالغة أيضا، لأن الأبيات التي صرحت فيها الشاعرات بأغراضهن بكل وضوح هي لشاعرات قليلات وعلى رأسهن ولادة بنت المستكفي وصاحبتها مهجة. كانت ولادة (ت 484هـ/1091م) سليلة أسرة أميرية، عرف أبوها المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن باستهتاره ومجونه حتى عزل عن الخلافة بعد أن حكم ستة أشهر فقط من عام 414هـ/1023م. وقد صرح ابن حزم بعدم إيراد أخباره لما فيها من سخف، ويمكن أن تكون أشعار ولادة معبرة عن تأثرها بالوسط الذي عاشت فيه، وكذا عن إحباطها وإحباط أسرتها أكثر من تعبيرها عن موجة شعرية مستهترة في الأندلس.

(1) Teresa GARULO, *Diwan de poetisas de al-Andalus* (Madrid: Hiperión, 1998).

(2) Louis di Giacomo, «Une poétesse grenadine du temps des Almohades; Hafsa bint al-Hajj ar-Rukuniya,» *Hésperis*, t. XXXIV, 1°-2° trim.(1947): 9-101.

(3) محمد المنتصر الريسوني، **الشعر النسوي في الأندلس** (بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1978)؛ سعد بوفلاقة، **الشعر النسوي الأندلسي، أغراضه وخصائصه الفنية** (الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995).

o المرأة الأندلسية الكاتبة

كان كتاب التراجم يحرصون عند ذكر مؤهلات مترجميهم على إتقان الخط، فينوهون بأصحابه وصاحباته، كما يشيرون أحيانا إلى ضعفه لدى بعضهم، وعلى عدم إتقانه أيضا. وقد عرفت الأندلس بانخراط النساء في النهضة العلمية وممارستهن لجميع مظاهرها من تعلم وتأليف وإبداع خطي، وكان التعليم منتشرا في صفوف النساء بشكل ملحوظ، وكانت النساء تسهمن في التعليم العائلي، فابن حزم مثلا تعلم القراءة والكتابة على أيدي نساء أسرته كما ذكر في طوق الحمامة: «وهن علمنني القرآن، وروّيننني كثيرا من الأشعار، ودرّبنني في الخط.»[1] وبجانب ذلك كانت للنساء إسهام فعال في إنتاج الكتاب، فقد نقل عبد الواحد المراكشي عن المؤرخ الأندلسي ابن أبي الفياض أنه «كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف الشريفة بالخط الكوفي.»[2] ومع ذلك فإن مختلف المصادر لم تحتفظ بذكر سوى قلة من النساء الخطاطات اللائي يبدو أن اهتمامهن بالخط لم يكن يقل على اهتمام الرجال به.

ومما يؤكد على مكانة الخط في ثقافة النساء والجواري بالأندلس وإتقانهن له، إضافة إلى مؤهلات ثقافية أخرى، اتخاذ عدد من الأمراء والخلفاء لكاتبات من النساء، مثل مزن (ت 358هـ/969م) التي كانت حاذقة بالكتابة ومن أخط النساء، فاستكتبها الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله الأموي؛ ولبنى بنت عبد المولى (ت 374هـ/984م) التي استكتبها ابنه الخليفة الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن، وكان يثق فيها كثيرا حتى أسند لها التوقيع عنه. وكتبت رقية بنت الوزير تمام بن عامر لابنة الأمير المنذر بن محمد بقصر قرطبة. وكانت نظام كاتبة بالبلاط الأموي أيام الخليفة هشام المؤيد، وغيرهن. ومن الدلالات العميقة على أهمية الخط في الأوساط الأميرية في الأندلس إطلاق عبد الرحمن الأوسط اسم قلم على إحدى جواريه المتميزات بحسن الخط.

لقد كان الاهتمام بالخط يصل عند بعض النساء إلى درجة الافتخار بين بنات جنسهن بحسن خطهن، وذلك ما تعبر عنه قصة جرت لإحدى الشاعرات الأندلسيات وهي صفية بنت عبد الله الريي، التي على الرغم من اشتهارها بجودة الخط، فقد عابت امرأة خطها، فما زادت أن ردت عليها بأبيات شعرية رقيقة من شعرها تقول فيها:[3]

---

(1) **طوق الحمامة**، ضمن **رسائل ابن حزم**، ج. 1، تحقيق إحسان عباس (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1974)، 166.

(2) عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق العريان والعلمي (القاهرة، مطبعة الاستقامة، 1949)، 373.

(3) الحميدي، **جذوة المقتبس** (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966)، 388؛ ابن بشكوال، **الصلة**، ج. 2، 655؛ كحالة، **أعلام النساء**، ج. 2، 340.

وعائبة خطي فقلت لها أقصري فسوف أريك الدر في نظم أسطري
وناديت كفي كي تجود بخطها وقربت أقلامي ورقي ومحبري
فخطت بأبيات ثلاث نظمتها ليبدو لها خطي وقلت لها انظري

ولا شك أن الطبيبة الشهيرة أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر أحمد بن عبد الله الطنجالي من أهل القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد قد تعرض لها من يعيب خطها أيضا، وكان خطها رديئا فيما يبدو، فدافعت عن نفسها بأبيات من شعرها تفضل فيها العلم على الخط فقالت:[1]

الخط ليس له في العلم فائدة وإنما هو تزيين قلم لقرطاس
والدرس سؤلي لا أبغي به بدلا بقدر علم الفتى يسمو على الناس

أما الشاعرة الغرناطية حفصة بنت الحاج الركونية فنظمت أبياتا شعرية ضمنتها العلامة السلطانية التي كان يكتبها الخلفاء الموحدين بخط التوقيع ويوقعون بها مراسلاتهم ونصها «والحمد لله وحده،» وتوجهت بها إلى الخليفة الموحدي يعقوب المنصور تسأله صكا قالت فيها:[2]

يا سيد الناس يا من يؤمل الناس رفده
امنن علي بصك يكون للدهر عده
تخط يمناك فيه والحمد لله وحده

كما احتفظت المصادر المختلفة بأسماء عدد لا بأس به من النساء الأندلسيات منهن ثلاث وعشرون امرأة خطاطة أو ناسخة. وهذا العدد يبدو قليلا إذا وضعناه في السياق العام لتاريخ الأندلس الثقافي والفني، لكن النقص مرده إلى ضياع عدد مهم من المصادر الأندلسية من مختلف العصور، بما فيها بعض الكتب عن تاريخ النساء. ورغم وجود أسماء لامعة لعدد من الخطاطات، فلم يحفظ لنا التاريخ للأسف خط أي منهن، أو قد تكون بعض الكتب بخط بعضهن لكن يصعب الاهتداء إليها بسبب عدم نسبتها لنساخها.

(1) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج. 1، 265؛ الخطابي، **الطب والأطباء**، ج. 1 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998)، 79؛ كحالة، **أعلام النساء**، ج. 1، 259-260.

(2) ابن الأبار، **التكملة**، ج. 4، 260-261؛ ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**، ج.2 (القاهرة: دار المعارف، ط. 3، 1955)، 138-139 و164-166.

o المرأة الطبيبة

من بين العلوم والصناعات التي أتقنتها بعض نساء الأندلس أيضا علم الطب، ومن الطبيبات الشهيرات ريحانة التي كانت جارية لطبيب يدعى أبا عبد الله الكناني، وكانت لها «معرفة بالطب، وعلم الطبائع ومعرفة التشريح، وغير ذلك مما يقصر عنه علماء الزمان.»[1] وأنجبت أسرة بني زهر الطبية الشهيرة بإشبيلية طبيبتين أولاهما أم عمرو بنت أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر، أخت أبي بكر ابن زهر الحفيد الطبيب المشهور في عهد الموحدين، وقد كانت عالمة بصناعة الطب والمداواة، ولها خبرة بما يتعلق بطب النساء. كانت تدخل على نساء المنصور الموحدي لتطبيبهن، وقد خلفتها في تلك الصناعة ابنة لها تعلمت الطب وكانت تمارسه.[2]

• ظاهرة الجواري بالأندلس

o الجارية ومواهبها

مما يؤكد أهمية الجواري في المجتمع الأندلسي، وأيضا في البلاط الأموي على وجه الخصوص أن أمهات جميع الأمراء والخلفاء الأمويين كن جوار إسبانيات باستثناء عبد الرحمن الداخل الذي كانت أمه بربرية نفزية.

كانت الجواري على أنواع، فمنهن جواري المتعة، والوصائف، والقينات، وجواري الخدمة، والجواري الغلاميات. ومن بين هؤلاء جوار نبغن في شؤون متعددة، وكانت لهن مهارات وفنون مختلفة كجارية الحكم المستنصر بالله المعروفة بالأسطرلابية التي تعلمت عمل الأسطرلاب والتعديل فبرعت فيه ووصلت إلى الغاية في إتقانه؛[3] وإشراق السويداء العروضية التي تعلمت عروض الشعر وأتقنته حتى صارت تعرف به؛[4] ومرجانة التي علمت زرزورا الغناء؛ وريحانة التي كانت تحسن العزف على جميع الآلات الموسيقية، وتحسن صنائع كثيرة أخرى.[5]

---

(1) المقري، **نفح الطيب**، ج. 2، 655.

(2) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، السفر 8، 483؛ علال الفاسي، **حديث المغرب في المشرق** (القاهرة: المطبعة العالمية، ط. 1، 1956)، 61؛ عبد الهادي التازي، **المرأة**، 123-124؛ كحالة، **أعلام النساء**، ج. 1، 278؛ زهير حمدان، **أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية** (دمشق: طبع وزارة الثقافة بدمشق، 1995)، 318.

(3) ابن الأبار، **التكملة**، ج. 4، 247؛ ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، السفر 8، 495؛ **التازي، المرأة**، 125.

(4) ابن الأبار، **التكملة**، ج. 4، 250-251؛ ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، السفر 8، 480؛ السيوطي، **بغية الوعاة**، ج. 1، 458؛ المقري، **نفح الطيب**، ج. 4،171؛ كحالة، **أعلام النساء**، ج. 3، 260؛ التازي، **المرأة**، 134.

(5) جلال الدين السيوطي، **المستظرف من أخبار الجواري**، تحقيق صلاح الدين المنجد (بيروت: دار الكتاب الجديد، ط. 2، 1976). تضمن أخبار عدة جوار أندلسيات وأشعارهن.

ولا شك أن أعداد الجواري في المجتمع الأندلسي كان مرتفعا، تدل على ذلك عدة شواهد منها انتعاش تجارتهن وكثرة الأخبار المتعلقة بهن في المصادر. وقد اضطلعت مجموعة من الجواري بأدوار خطيرة في البلاط الأموي مثل طروب وصبح البشكنسية وغيرهن.[1]

كانت مصادر الجواري بالأندلس مختلفة، فهناك الجواري الروميات، وكن يشكلن الأغلبية، إضافة إلى جواري نقلن من المشرق، حيث كان أمراء الأندلس يحرصون عليهن لغلبة التقاليد المشرقية في البلاط، خاصة فيما يتعلق بثقافة الجواري وسلوكهن، ومنهن من أتي بهن من بغداد[2] والمدينة المنورة.[3] واتخذ الأمير عبد الرحمن بن معاوية جارية سوداء مدنية «كانت قيمة في قصره، وكانت مكلفة بإصلاح جواريه، وتتولى حملهن على أدبه واستحسانه،»[4] على مقتضى ما كان سائدا في بلاطات المشرق. ورغم انتشار الجواري السوداوات فإن الصدارة كانت للجواري الروميات والاهتبال بهن كان أكثر.

ويجب التذكير بأن شرط الجمال لم يكن هو الوحيد المعتبر في الجواري، حيث لم تكن جميعا بارعات الجمال، ولكن تقدير مهاراتهن بوأهن المكانة التي وصلن إليها. وللوقوف على ثقافة بعض الجواري ومكانتهن في المجتمع الأندلسي نقتطف ترجمة لإحداهن تبين مهاراتها وما تحسنه من علوم، ويتعلق الأمر بجارية تدعى ريحانة، كانت «جارية الطبيب أبي عبد الله الكناني. اشتراها هذيل بن خلف بن لب بن رزين البربري[5] بثلاثة آلاف دينار. قال ابن حيان في تاريخه وقد ذكر جودة خطها، ودل على ثقافتها وأشار إلى معارفها المتنوعة النادرة: «لم ير في زمانها أخف منها روحا، ولا أسرع حركة، ولا ألين عطفا، ولا أطيب صوتا، ولا أحسن غناء، ولا أجود كتابة ولا خطا، ولا أبدع أدبا، ولا أحضر شاهدا، ومع السلامة من اللحن في كتبها وغنائها، لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض، إلى المعرفة بالطب، وعلم الطبائع ومعرفة التشريح، وغير ذلك مما يقصر عنه علماء الزمان. وكانت محسنة في صناعة الثقاف، والمجاولة بالتراس، واللعب بالرماح والسيوف والخناجر المرهفة، لم يسمع لها بنظير ولا عديل.»[6]

---

(1) راوية عبد الحميد شافع، **المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط قرطبة (92-422هـ/711-1031م)** (القاهرة: عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، ط1، 2006)، 49-79.

(2) ابن الأبار، **التكملة**، ج. 4، 242-243، و 245-246، المقري، **نفح الطيب**، ج. 3، 131، و140-141؛ كحالة، **أعلام النساء**، ج. 4، 220، وج. 5، 113.

(3) ابن حيان، **المقتبس** الثاني، 119 و132؛ ابن الأبار، **التكملة**، ج. 4، 241؛ و**الحلة السيراء**، ج. 1، 114؛ المقري، **نفح الطيب**، ج. 3، 140؛ كحالة، **أعلام النساء**، ج. 3، 331، وج. 4، 177.

(4) مؤلف مجهول، **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها** (القاهرة: دار الكتاب المصرى، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1989)،97.

(5) كان صاحب مدينة السهلة.

(6) المقري، **نفح الطيب**، ج. 2، 655؛ ابن عذاري، **البيان**، ج. 3، 308.

o تجارة الجواري

كانت مصادر الجواري مختلفة؛ منها الأسر في الحروب بين المسلمين والنصارى، والإهداء بين المحكومين والحكام، أو بين الخلان؛[1] كما كان الجلب بالشراء من المشرق أمرا مشتهرا خاصة بالنسبة للأمراء والخلفاء الأمويين.

ومن أشهر جواري الأندلس فضل وعلم وقلم اللواتي جلبن من المدينة المنورة. وقد تنافست في اقتناء الجواري فئات مختلفة كالملوك والأمراء، والعلماء، والشعراء، والكتاب، وأيضا النساء سواء كن حرائر أو جواري. وقد انتشرت ظاهرة عتق الجواري والزواج بهن على نطاق واسع.

وبفضل القسم الثاني من كتاب المقتبس لابن حيان الذي ظهرت نسخته المخطوطة قبل عقدين تقريبا في إسبانيا،[2] أمكننا الوقوف على ترجمة واسعة للحكم الربضي الذي كان مكثرا من الجواري والنساء، حريصا عليهن، شديد الانتقاء لهن، فذكرت في ترجمته العديد من النساء، كما ذكر في نفس الكتاب توسع المغني زرياب في طلب الجواري ففاق عدد جواريه الخمسين جارية.

كان سوق الرقيق يعرف بالمعرض،[3] وكانت ألمرية هي المدينة التي يروج بها أكبر عدد من الجواري المجلوبات عن طريق البحر من مختلف الأقطار، خاصة من أوروبا وبلاد الصقالبة. وكانت لأهل الأندلس ثقافة خاصة في شأن الجواري تتجاوب مع ما كان عند أهل المشرق، قال السقطي: «وقد تكلم الناس في المماليك وأصنافهم وصورهم وأخلاقهم وما يصلح له كل نوع منهم، وخاضوا في ذلك كل خوض وقالوا: الخادم البربرية للذة، والرومية لحيطة المال والخزانة، والتركية لإنجاب الولد، والزنجية للرضاع، والمكية للغناء، والمدنية للشكل، والعراقية للطرب والانكسار.»[4]

---

(1) ابن حيان، **المقتبس**، 132.

(2) كان قد استعارها من خزانة القرويين بفاس المؤرخ الفرنسي ليفي بروفنصال، ولم يرجعها، ولعله كان ينوي تحقيقها برفقة البحاثة الإسباني إميليو كارسيا كوميس، لكن ذلك لم يتم، وبعد وفاة هذا الأخير تبرعت زوجته بمكتبته للأكاديمية الملكية للتاريخ بإسبانيا، فعثر الباحث الإسباني خواكين برميخو الذي كلف بفهرسة تلك المكتبة على المخطوطة بين الكتب، فكان اكتشافا علميا كبيرا، لذلك سارعت الأكاديمية الملكية التاريخية بطبعها طبعة فكسملية جيدة سنة 1999، ثم قام البحاثة المصري المتمكن في الأندلسيات الدكتور محمود علي مكي رحمه الله بتحقيقها تحقيقا جيدا، وصدرت عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، سنة 1424هـ/2003م. ولا تزال المخطوطة موجودة في إسبانيا إلى اليوم في وضعية غير قانونية، ومن حق خزانة القرويين أن تطالب بإرجاعها، فعسى أن يتحقق ذلك.

(3) السقطي، **آداب الحسبة**، 64.

(4) المصدر نفسه، 65.

o أساليب ومظاهر الخداع في تجارة الجواري

ونظرا لانتشار بيع الرقيق في الأندلس فقد كثرت بعض أساليب الخداع والتدليس التي كان النخاسون يلجؤون إليها لرفع أسعار رقيقهم، وقد بين السقطي بعض أساليب الغش التي كان باعة الرقيق يخدعون بها المشترين «بما لا يقتضيه الشرع ولا تقبله نفس المؤمن ولا ترتضيه،» وذكر منها «أنهم ينصبون بسوقهم امرأة يسمونها الأمينة توافق في النكر مذهبهم، وتشهد في استبراء الخدم بمقتضى مرادهم وبحسب ما يعطي مشتريهن،» وكان الهدف من ذلك رفع أسعار تلك الجواري حتى «يتوصل المفسدون بمشاركتها إلى ما لم يكونوا يقدرون عليه دونها.»[1]

ويبدو أن النخاسين قد أحكموا طرق التدليس للاحتيال على الراغبين في اقتناء الجواري الحسناوات، واستعانوا في ذلك بنساء ماكرات «يحكمن اللسان الأعجمي والزي الرومي،» وقد تحدث السقطي أيضا عن أساليب التدليس المعتمدة لإخفاء عيوب الجواري وإظهار محاسنهن، من تسويد للشعر وتحمير للخدود، ومن أطرف ما ذكره أن النخاسين «يصيرون العين الزرقاء كحلاء بأن يقطر فيها ماء قشر الرمان الحلو، ويصبغون البياض الذي على ممو العين بأن يقطر فيها لبن أتان حارا.»[2]

واقترح السقطي لمحاصرة تلك السلوكات على المحتسب «أن يقدم أمينة من ثقات المسلمين الخيار أهل الدين والمروءات يؤمن عليها مكر ذلك الصنف من النخاسين وخدعهم،»[3] ويقترح أن يتم اختبار الجواري «فيما يدعين أنهن يحسنه من أنواع صنائعهن.»[4]

o القينات والمغنيات

عجت قصور الأندلس بالمغنيات اللواتي كن يجلبن من مناطق مختلفة وقاصية مثل المشرق، ويحتفى بهن لإتقانهن أصواتا أو ضروبا من الغناء تحتفل لها المجالس وتهتز لها الأرواح وتطرب لها الأسماع، ولم ينحصر الولع بالغناء في الأوساط الملوكية والأميرية فقط، بل انتقل إلى أوساط عامة الناس، وكانت إشبيلية أشهر مدن الأندلس في مجال الطرب والغناء،[5]

(1) المصدر نفسه،63.
(2) المصدر نفسه، 68.
(3) المصدر نفسه، 73.
(4) المصدر نفسه، 73.
(5) مما يذكر عن شيوع الغناء بإشبيلية أنه إذا توفي مغن بقرطبة حملت آلاته لتباع في إشبيلية، وإذا توفي عالم بإشبيلية حملت كتبه لتباع في قرطبة.

وفي بلنسية أيضا «لا تكاد تجد فيها من يستطيع على شيء من دنياه إلاّ وقد اتخذ عند نفسه مغنّية وأكثر من ذلك، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغاني.»[1]

وفي الترجمة المطولة لزرياب المغني في السفر الثاني من كتاب **المقتبس** لابن حيان ذكر لأسماء حوالي خمسين من جواريه المغنيات اللائي أخذن عنه وبرعن في طريقته في الغناء، خاصة ما عرف بهزج المدني، وقد عرفت المتقنات لهذا الضرب بالمدنيات، وكانت تجمعهن دار عرفت بدار المدنيات بقرطبة يتعلمن فيها الغناء. وزيادة على نبوغ العديد من جواري زرياب في الغناء، نبغ فيه أيضا بعض أبنائه وبناته مثل علية وحمدونة.[2]

وبجانب جهود زرياب وما أرساه من تقاليد غنائية في قرطبة ذكر التيفاشي القفصي أنه كان بإشبيلية: «عجائز محسنات، يعلمن الغناء لجوار مملوكات لهن، ومستأجرات عليهن، مولدات. ويشترين من إشبيلية لسائر ملوك المغرب وإفريقية. تباع الجارية منهن بألف دينار مغربية وأكثر من ذلك وأقل، على غنائها لا وجهها؛ ولا تباع إلا ومعها دفتر فيه جميع محفوظاتها ... ولا بد للجارية المغنية عندهم من أن تحسن الخط، تعرض محفوظاتها على من يصححه لها من العربية، فيقرأ مشتريها ما في الدفتر ويعرض عليها منه ما أحب فتغنيه بالآلة التي تشترط في بيعها، وربما كانت محسنة في جميع الآلات، وفي جميع أنواع الرقص والخيال، ومعها آلتها. والجواري اللواتي يطبلن ويزمرن فتسمى مكملة، وتباع بعدة ألوف من الدنانير المغربية.»[3]

لقد أسهم تهالك أمراء ونخب الأندلس على القينات إلى انتشار عادة اقتنائهن والتغالي في أثمانهن، فانتعشت تجارة القينات، لذلك اجتهد باعة الرقيق في اختيار الجواري الروميات الجميلات وتعليمهن ضروب الغناء المختلفة، إضافة إلى تحفيظهن الأشعار والأخبار لترتفع أثمانهن.[4]

---

(1) العذري الدلائي، **نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار**، تحقيق عبد العزيز الأهواني (مدريد: معهد الدراسات الإسلامية، 1965)، 18.

(2) المقري، **نفح الطيب**، ج. 4، 117-127.

(3) أحمد بن يوسف التيفاشي القفصي، «متعة الأسماع في علم السماع،» **مجلة الأبحاث**، بيروت، مجلد 21، عدد 2-3-4 (1968): 103.

(4) انظر بعض أخبار الجواري في المقري، **نفح الطيب**، ج. 1، 400-401.

خاتمة

يتضح من الوقوف على جوانب من تاريخ المرأة الأندلسية أن وضعيتها شهدت تطورا واضحا وتنوعا كبيرا نلمسه في ثنايا الأخبار والشذرات المتعلقة بها في المصادر المتنوعة رغم تفرقها. كما يتضح أن هناك غموضا ما يزال يخيم على جوانب أخرى في انتظار أن يجود الزمن بنصوص جديدة.

ونعتقد أن الاجتهاد في التنقيب عن أخبار النساء وتتبع شواردها مطلب أساسي لتغذية دراسات موضوعية تدقق القضايا وتتجاوز التعميم في الأحكام. ولا شك أن مجموع التراجم والأخبار والإشارات ستوفر مادة علمية لمعجم شامل للنساء الأندلسيات. كما أن جمع الديوان الشعري الكامل للشاعرات الأندلسيات سيكون إضافة أدبية ذات أهمية بالغة، فضلا عن أهمية رصد الفتاوى والأحكام الخاصة بنوازل النساء، والتعرف على مختلف المواقف الفكرية والاجتماعية من المرأة في مختلف الأدبيات. كل هذا سيمثل تجديدا في الدراسات حول تاريخ المرأة الأندلسية ودورها في المجتمع، ويسمح للباحثين بإعادة النظر في كثير مما قيل عن المرأة الأندلسية لحد الآن وإبراز مكانتها بدقة أكبر.